السيد جمال الدين الأفغاني فيسأله مندهشاً : بالله قل لي : ابن أي ملك أنت ؟

لم يكن ابن ملك ولا ابن أمير ، ولكنه ابن القوات الروحية العاملة في هذا الكون ؛ فهي أعدته ، وهي ألهمته ، وهي أنطقته ، وهي أخرجته في قومه إعلاناً غير كتمان ، ومُصارحةً غير مخادعة ، وهي جعلت فيه أسدية الأسد ، وهي ألقت في كلامه تلك الشهوة الروحية التي تذاق وتُحب كالحلاوة في الحلوى

هذا هو العالم الديني ؛ لا بد أن يكون ابن القوات الروحية لا ابن الكتب وحدها ، ولا بد أن يخرج بعمله الى الدنيا لا أن يدخل الدنيا تحت سقف الجامع

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تتضاءل بجانب الأصل . يبحثون في سنن النبي صلى الله عليه وسلم كيف كان يأكل ويشرب ويلبس ويمشي ويتحدث ، كأنهم من الدنيا في قانون المائدة وآداب الولائم ورسوم المجتمعات . أما تلك الحقيقة الكبرى وهي كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يقاتل ويحارب لهداية الخلق ، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها ، وكيف كان بطباعه القوية الصريحة تعديلاً فعالاً في هذه الانسانية للنواميس الجائرة ، وكيف كان يحمل الفقر ليكسر به شِرَّةَ النواميس الاقتصادية التي تقضي بجعل الأخلاق أثراً من آثار السعة والضيق فتخرج من الغنيّ متعفّفاً ومن الفقير لصاً ، وكيف استطاع صلى الله عليه وسلم بفقره السامي أن يحول معنى الغنى في نفوس أصحابه فيجعله ما استغنى عنه الانسان من شهوات الدنيا لا ما نال منها ؛ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة في تنظيم الحياة فقد أهملوه ، إذ هو لا يوجد في الكتب وشروحها وحواشيها ولكن في الحياة وأثقالها وأكدارها . وبذلك أصبح شيوخنا من الأمة في مواضع لم يضعهم فيها الدين ولكن وضعتهم فيها الوظيفة

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة : سئل بعض العرب : بم ساد فلان فيكم ؟ قالوا : احتجنا الى علمه واستغنى عن دنيانا

(سيدي بشر باسكندرية) مصطفى صادق الرافعي

من ذكريات عابر سبيل

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

كان أحد الأخوان يصحح قول الشاعر : « وسافر ففي الأسفار خمس فوائد » فيقول — بعبارة لا أستطيع أن أرويها بحروفها — إن الفوائد ثلاث فقط : البعد عن المرأة ، والنوم كيفما اتفق ، وتكليم الناس بلا معرفة . فأما البعد عن المرأة — أي الزوجة — فاني لم أعد أدري أهو مزية وخير أم ضرورة وعيب وشر ؟ . ولكن الذي أدريه أني حاولته مرة بلا لف أومداورة ، ثم عدلت عن التماسه ووطنت النفس على اليأس منه ، وروّضتها على السكون إلى القرب والمودة . وتجاربي في هذا الباب تخولني أن أنصح لمن يريد أن يسافر وحده أن يجازف ويلح على زوجته أن تكون معه ، فاذا أبت كان هذا هو المراد من رب العباد ، وإلا فلن يصيبه إلا ما كان مكتوباً عليه . على أنه يجب أن يكون مفهوماً أن المعول في هذا الامر على أسلوب الحوار وطريقة الكلام . والزواج — كما هو معروف — من مزاياه أنه يكسب الانسان مرونة في التعبير ، وقدرة على الاحتياط ، وبراعة في التحرز ، وسعة في الحيلة . وإني لأذكر أني كنت في سوريا مع أسرتي منذ نحو سنتين ؛ فذهبنا مرة الى بيروت لنشتري أشياء نهديها إلى أهلنا ومعارفنا عند عودتنا ؛ فرأت زوجتي معطفاً من الفرو ثميناً جداً فأعجبها واشتهت أن يكون لها ، ولكني نظرت إلى ثمنه فدار رأسي ، وأيقنت أنا إذا اشتريناه سنصير إلى الاستجداء والتسول ، فأصابتني فجأة نوبة عصبية حادة لم ترها زوجتي قط من قبل ، ففزعت ودعت أصحاب المحل أن يدلوها على طبيب بارع في الأمراض العصبية ، فقد خيل إليها أن هذا الذي أصابني لا بد أن يكون ضرباً من الصرع أو التشنج أو لا أدري ماذا غير هذا ، فحملوني إلى طبيب فرنسي قالوا لها إنه هو الاخصائي الوحيد هنا ، وإنه من آيات الله ومعجزاته في طب الأمراض العصبية ، فأدخلوني عليه فاتضح له من استجوابي ومما عرفه من تاريخ آبائي وأجدادي من قبلي أن أهلي — في حداثتي — خوفوني مرة بدب صناعي له فرو كثيف ، وكانت صدمة الفزع التي انتابتني في صغري شديدة جداً ، فأنا من ذلك الحين أضطرب جداً جداً إذا وقعت عيني على الفرو ... فسألته زوجتي التي لم تكن

تعرف هذا الجانب من تاريخ حياتي الحافل بالمفاجآت — سألته عن العلاج فقال : « أوه .. لا شيء .. لا داعي للقلق .. ولكن يجب ألا يرى الفرو أبداً .. » ، والحق أقول إنه كان طبيباً بارعاً جداً ، فان مرضي العصبي لم يعاودني بعدها أبداً .. والفضل بعد الطبيب هو بلا شك لزوجتي التي حرصت أعظم الحرص على ألا أرى الفرو ..

وأما النوم كيفما اتفق فهذا أشهد أنه صحيح .. وأذكر بسرور أن قطاراً سافرت فيه مرة كان غاصاً بالركاب . وكانت المسافة طويلة والشقة بعيدة تستنفد الليل كله ولا بد من النوم . ولو كانت الجلسة مريحة لنمت وأنا قاعد ، ولكني كنت كالبائحة في قفة عجوة ، فحرت ماذا أصنع . ثم فتقت الضرورة لي حيلة فنحيت الحقائب عن الشبكة الممدودة لها فوق رؤوسنا ورقدت مكانها ، ونمت أهنأ نوم إلى الصباح ، ولو كنت ضخم الجسم لما تيسر لي ذلك فالحمد لله على الضآلة ..

وأما تكليم الناس على غير معرفة فهذا هو قانون السفر ، ولست تحتاج أن يعرفك أحد بأحد في رحلة ، وما عليك إلا أن تبدأ من تشاء بالكلام كأنما كنت تعرفه من عهد آدم ، ولكن هذا لا يخلو من خطر ؛ فقد تقع على ثقيل أو ثرثار فينغص عليك وقتك ويحرمك كل متعة يمكن أن تفوز بها وأقلها متعة الراحة وخلو البال من المنغصات ؛ ولكثرة ما أصابني من ذلك صرت أكره السفر بالقطار وأوثر السفر بالسيارة ؛ فاذا اضطررت إلى القطار عمدت إلى الحيلة وهي أن أضع حقيبتي في أي مكان حتى يتحرك القطار ، ثم أتركها وأذهب أبحث عن مكان آخر أتوسم في أهله الطرف والايناس ، وهذا يتطلب فراسة صادقة ، والفراسة استعداد ولكنها تكتسب الى حد ما بالتجربة.

ومن الفوائد المجربة في الأسفار أن يستصحب المرء معه كتاباً في فن الطبخ ، ولست أعني أنه قد يحتاج أن يصنع طعامه بيده وإن كان هذا محتملاً ، ولكني أقص ما وقع لي في هذا الباب — أو بعضه على الأصح — فقد كنت مرة في فلسطين وكنت ضيفاً على صديق لي ، فأصابني برد شديد من كثرة التنقل بين البلاد فوق الجبال بالسيارة في الليل وعاودني منغص الكليتين ، فلم يبق بد من الرقاد والحمية وانتظار مشورة الطبيب وإن كنت عارفاً بدائي ودوائه ، ومضى يوم ثان وثالث وطلع الرابع وأنا لا آكل إلا الموصوف من الأطعمة الخفيفة المأمونة ، وهذه لا طعم لها ولا لذة لآكلها ، وكل طعام يفرض على المريض يكون بغيضاً اليه ، فاشتهت نفسي أشياء قالوا لي إنه لا سبيل اليها لأن الطبيب منع أن تقدم إلي ، فاعترضت على هذا وقلت لهم إن الألم قد زال وإن الصحة قد عادت ولله الحمد ، وإني أستطيع الآن أن أفعل ما أشاء وآكل ما أحب ، فقالوا « حتى يراك الطبيب » فقلت إن هذا طعن في ذمتي لا أقبله ولا سيما في أمر يعنيني وحدي ، وأنا على كل حال أدرى من الطبيب بنفسي بل أدرى من أطباء الدنيا جميعاً . وهل كان الطبيب قد أحس بالألم حين جاءني المغص .. هل عرف أني ممغوص إلا مني .. اذن انتهينا .. أنا أنبأته أني مريض ولولا ذلك لما عرف . وأنا أيضاً أنبئه أني شفيت وأنه صار من حقي أن أتمتع بمزايا الصحة .. واذا كان الطبيب قد صدقني في واحدة فيجب حتماً أن تصدقوني في الثانية ، فروحوا هاتوا كذا وكذا من الآكال ، وكيت وكيت من الأشربات ..

فضحكوا وأبوا أن يجيبوني الى ما طلبت قبل أن يأذن لي الطبيب ، فلم يسعني الا أن أذعن للحرمان — فاني في بلد غير بلدي — ولكني طلبت أن يجيئوني بكتاب في فن الطبخ فاستغربوا وسألوني عما أنوي أن أصنع به فلم أعبأ بهم ، فجاؤوني به فقلت لهم : « ألا تستطيعون أن تذهبوا عني الى حيث تشاؤون فحسبي هذا الكتاب وكفى به أنيساً في وحدتي ومسلياً لي في غربتي »

وفتحته في موضع الفهرس وانتقيت الألوان التي أشتهيها وانطلقت أقرأ بنهم . وصدقوني حين أقول إن ريقي كان يجري وإني كنت أنعم بأقوى من لذة الشره المبطان وأنا أقرأ فيه

« كفتة الدجاج — تسيح الزبدة ويضاف الدقيق ثم اللبن بخفة مع استمرار التقليب حتى يصير المزيج في قوام القشدة ، ثم يضاف الملح والبقدونس والفلفل ، ثم تغلى مدة ثلاث دقائق ، ويضاف لحم الدجاج ويخلط جيداً ، ثم يصب هذا فوق طبق مسطح حتى يبرد ويؤخذ من المخلوط بلعقة كبيرة ويوضع في دقيق ويعمل على هيئة كور أو أقراص أو أشكال بيضاوية وتوضع في مكان بارد حتى تتجمد تماماً ، ثم تبتل في فتات خبز ، وتغطس في بيض مخفوق مخلوط باللبن ، ثم في فتات الخبز ثانياً وتقلى في سمن ساخن جداً حتى تحمر ثم تنشف على فرخ ورق غير مصقول .. تنبيه — هذه الكمية تصلح أن يعمل منها أربع عشرة قطعة » ولكني نسيت أن أذكر الكميات والمقادير .. لا بأس . فليس هذا كلاماً عن الطبخ .. ولا عجب أن أذوق بالوهم والخيال مثل

لذات الحقيقة فان هذه حياتنا معشر الأدباء .. وما أكثر ما تترك الحقائق ونروح نجري وراء الظلال ! ثم نحاول أن نعزي أنفسنا بأن الحقائق المشتهاة كثيراً ما أثبتت التجربة أنها دون ما كان متوقعا ، وأن الخيال أفسح رحاباً وأوسع آفاقاً ؛ فهو أقدر على امتاعنا . وأن الحقيقة نفسها إنما تكون ممتعة وجيلة بفضل الخيال ، ولولاه لما كان لها طعم ولا فيها متعة . فعمل الخيال لا بد منه للامتاع على كل حال سواء أكنت آكلا بالفعل أم متوهماً أنك تأكل ؛ والفضل والمزية للخيال لا للمادة فانها بمجردها لا شيء ، وإنما تكون شيئاً بما يفيضه عليها الخيال من السحر والفتنة وما يضفيه عليها ويفيضه إليها ويزينها به .

وعلى ذكر فلسطين أقول إني أحب السفر إليها لأنها لا تكلفني إلا أجرة القطار . أما الأكل والنوم والنزهة فعلى الله والاخوان بارك الله فيهم . وقد حدث في العام الماضي أني تعبت من العمل المتوالي فأشاروا علي بالراحة . فقلت اذهب إلى فلسطين . وكان الوقت شتاء والبرد في جبال فلسطين يكون قارساً . فقال لي صديق اذهب الى الأقصر فقلت : فلسطين أفضل ، فاستغرب وبدأ يجادل ، فضاق صدري وقلت له : ياأخي إن الاقصر تحتاج إلى مال كثير ، أما فلسطين فيكفيني أن تكون معي أجرة القطار

ومن الغرائب التي لا أظن أن كثيرين وقع لهم مثلها أني كنت مرة في جزيرة مع إخوان لي ، فقلنا : نصيد سمكا نشويه ونأكل منه في يومنا هذا ، فاخترنا شرماً يضرب الماء فيه ويمعن في البر لأنا قدرنا أن يكثر فيه السمك ، وجئنا بديدان اتخذناها طعاماً وجلسنا ننتظر أن يخدع السمك . فمضت ساعة وأخرى ونحن لا نظفر بشيء ، فنفد صبر أحدنا فتركنا وغاب شيئا ثم عاد بفونوغراف أداره وهو يقول مازحا : « لعل السمك يحب الموسيقى .. من يدري .. أليس له حاسة فنية ؟ » فسرنا أنا وجدنا شيئا نتسلى به في هذه الجلسة المملة ، وإذا بالسنارة التي كانت معي تضطرب وتنجذب إلى الماء ، فشددتها فخرجت سمكة حسنة ، فصحت بصاحبي « أعد ! أعد . . أعني للسمك فما جاء إلا على الموسيقى » وكنت أنا أيضاً أمزح ، ولكنا ما لبثنا أن وجدنا هذا حقيقة . فكان السمك يكثر ويشتد إقباله على الناحية التي تكون فيها إذا أدرنا الفونوغراف ، ويقل ويذهب عنا إذا سكت . ولو كانت معنا مجموعة وافية من الاسطوانات لا استطعت أن أجرب أي الأدوار أحب إلى أي أنواع السمك ، ولعرفت أي الأسماك تحب التانجو وأيها يؤثر الفوكس تروت وهكذا . وقد اتفق منذ بضعة شهور وأنا في العراق أن كنا مدعوين الى الغداء في بيت على نهر دجلة — والعراقيون يسمون كل مسكن على النهر قصراً أو سراي ولو كان كوخاً — وكان بيت صديقنا هذا ضخما فخما وفيه جهاز للراديو ، وكانت الساعة الأولى مساء — وهي بحساب الوقت في مصر الساعة الثانية عشرة — فخطر لي أن أجرب تأثير الموسيقى في السمك ، فرجوت من صديقنا أن يفتح الراديو وأن يسمح لنا بالانحدار الى الحديقة ، وهي متصلة بالنهر ، واتفق أنه كان مغرماً بالصيد ، ولكنا لم نسمع من مصر الا شريطاً مسجلا لأحد المغنين ، ويظهر أن السمك لا يحب المعاد أو لعله لم يعجبه الغناء وان كان يطربنا نحن الآدميين . فقلت أعود في المساء وأرى . غير أني لم أستطع أن أعود إليه قبل الساعة التاسعة مساء — أي الثامنة بحساب الوقت في مصر ، واتفق أن كان الذي يذاع حديثاً فنفرت الأسماك جميعها نفوراً ظاهراً . وفي اعتقادي أن محطة الاذاعة تستطيع أن تساعد على ترقية المصايد المصرية — فتخدم السمك والناس — إذا هي عنيت بأن تدرس طبائع الأسماك وأمزجتها وما يوافقها من ضروب الموسيقى ، وفي وسعها بالاذاعة المتخيرة أن تنظم صيد السمك ، وأن تجعل لكل نوع منه وقتاً معيناً . فاذا كان المراد مثلاً صيد ما يسمى البوري وما عائله أذاعت للصيادين بعض الأغاني الشجية التي تفتر النفس . وإذا كان المطلوب صيد ثعابين الماء أو حياته أسمعتها أغنية « هاتشي بتشي » وهكذا فيكثر المحصول بلا عناء وينتظم الأمر كله . ويعرف الناس ما ذا يستطيعون أن يأكلوا من السمك في كل يوم بمجرد الاطلاع على برنامج الاذاعة ومن غير خوف من أن يغشهم التاجر ويدخل عليهم صنفا باسم صنف آخر

والحجاز وإنجلترا هما — فيما أعرف — البلدان الوحيدان اللذان تستطيع فيهما أن تترك حقائبك أو أشياءك في الطريق فلا تمسها يد غير يدك ولا يسطو عليها سارق . فاما في الحجاز فقد سقطت مني عصاً في الطريق بين جدة ومكة فتعطل السير من الجانبين وانقطع المرور حتى اهتدى الشرطة إلى أني صاحبها فخاطبوني بالتليفون وأنا في الشمسية — قرب مكة — فرجوت منهم أن يردوا العصا اللعينة إلى جدة مخافة أن تركب اثماً آخر فيأخذوني بذنبها . وأما في انجلترا فقد تركت حقائبي ساعة وصلت إلى لندن على الرصيف أمام البيت الذي اختاره صديق لي

لأنزل فيه وذهبت معه — أى مع الصديق — إلى بيته حيث اغتسلت وحلقت ذقنى وشربت القهوة واسترحت ثم عدت الى الحقائب بعد ساعتين فوجدتها فى مكانها كما كانت . وأغرب من ذلك أنى راهنت صديقى هذا أن أقضى يوماً فى لندن لا أتكلم فيه إلا اللغة العربية فخاف أن نتورط فيما لا يحمد واقترح أن نقتصر على السعى للوصول إلى وستمنستر أبى « من غير أن ننطق كلة بغير لغتنا . فوافقت وتوكلنا على الله وخرجنا من البيت — هو وزوجته وأنا — وكنا نعرف الطريق ولكنا تجاهلناه ، فراقنى منظر رجل واقف بجانب حانة ينتظر على الأرجح وقت السماح ببيع الخمر — فان لذلك وقته المعين حوالى الظهر وفى المساء — فدنوت منه وحييته التحية المصرية — أى برفع يدى ثم مددها الى يده لمصافحته ، وسألته — بالعربية طبعاً — عن وستمنستر ، وتعمدت أن أحرفها تحريفاً شديداً فنطقتها « وستمنصته » ، وأقول الحق ان الرجل فزع واعتدل بعد الميل ونسى الخمر التى يحلم بها وينتظر أن يسعد باحتسائها ؛ فأعدت السؤال برفق فلم يفهم طبعاً على الرغم من صدق رغبته فى ذلك ، فلما يئس قال تعال معى ، وقادنى الى الشرطى وهو شىء ضخم جداً وأنا شىء ضئيل أو كما يقول ابن الرومى :

أنا من خف واستدق فلا يثـ قل أرضاً ولا يسد فضاء

وقال له إن هذا الغريب يبدو لى أنه يسأل عن شىء لا أستطيع أن أتبينه ، فمال على العملاق الانجليزى وقال يستحثنى : نعم ؟ فسألته عن « وستمنصته » فجعل يهز رأسه ويستعيدنى ، وأنا أهز له رأسى أيضاً كأنى غير فاهم ، وألح فى السؤال عن « وستمنصته » فأحس أن فى الكلمة شيئاً يمكن أن يهديه إلى مرادى وقال « قل هذا مرة أخرى » ولكنى تغابيت وجعلت أتلفت ، ثم قلقت وخفت ، فقد رأيت صديقى وزوجته قد تركانى وذهبا فوقفا على الرصيف . وليت هذا كل ما حدث ... اذن لما كان فيه بأس ولكنهما كانا يضحكان حتى لخيل الى أنهما سيقعان على الأرض . وكان ضحكهما بصوت عال فخفت أن يفطن الى أن الأمر مزاح فيستثقله أو يعده سخرية منه فتسوء العاقبة ، فخففت التحريف فلم يلبث أن فطن الى مرادى فاستوقفنى حتى مرت سيارة أمنيبوس معينة فأمرنى أن أصعد وتبعنى صديقى وأمر الكمسارى أن يأخذ منا الأجر الى وستمنستر وأن يحرص على أن ينزلنا هناك ، فأخرجت نقوداً ومددت بها يدى الى الكمسارى ليأخذ منها ما يشاء لحاجة منى فى دعوى الجهل باللغة الانجليزية . وهكذا كسبت الرهان

وفى غير بوليس لندن لا تجد مثل هذا الصبر والرغبة المخلصة فى المعاونة . وأذكر مثالاً آخر فأقول إن صديقاً لى أعارنى سيارته لأذهب بها من لندن الى اسكتلندا وأتمتع فى طريق بأجمل ريف فى العالم ، وهو ريف انجلترا ، وكانت السيارة كبيرة ضخمة ويكفى أنها من طراز « دبملر » ، فكنت إذا جاء الليل قبل أن أصل إلى بلد ما وخفت أن أضل ، أميل عن الطريق إلى الأرض المعشاب وأتعشى بما أعددت من الطعام ، ثم أنام فى السيارة الى الصباح الباكر ، فاتفق يوماً أن فرغ البنزين وأنا سائر قبل أن أنتبه ، فوقفت مضطراً حيث كنت . ولما كانت السيارة كبيرة وثقيلة فقد عجزت عن تحويلها عن الموضع الذى تشغله من الطريق ، فجلست على سلمها وشرعت أدخن حتى يوفقنى الله إلى شىء ، فمر بى شرطى كان قد فرغ من العمل على ما أخبرنى ، فهو ماض إلى بيته ، فسألنى : هل بالسيارة خال ؟ قلت : لا ، ولكنها أتت على كل ما فى خزانها من الوقود . فقال : انتظر ، ومضى عنى إلى حقل قريب ، وهناك استمار دراجة — بسكليت — ركبها وعاد بها ، وما لبث أن رجع حاملاً معه مقدارا كافياً من البنزين وقمعاً لافراغه فى جوف السيارة ، فشكرته وقدمت له كأساً من الوسكى الذى معى فى السيارة ، وبعد قليل حملت القمع والصفيحة معى وذهبت بهما إلى محل البنزين ، وكان على مسافة ثلاثة أميال ، فرددت الأشياء ودفعت الثمن . ومن الانصاف أن أقول إنك لا تعدم شرطياً غير انجليزى يفعل هذا ، ولكن هذه الروح فى الانجليزى طباع

وأعود إلى فلسطين فأقول إن فى عكة مسجداً كبيراً هو الآن مسجد ومدرسة فى آن معاً ، وقد بناه — على ما أظن — أحمد الجزار باشا الوالى التركى فى ذلك الزمان ، وهو رجل مشهور فلا أحتاج أن أحدثكم عنه ، ولكنى أقول إنى وجدت مكتوباً على باب المسجد من الداخل هذا البيت العجيب فى مدح الجزار باشا :

« ذاك الوزير الشهم أحمد من غدا جزار أعناق العباد كما يجب »

وأظن هذا بيتاً يستحق التدوين ....

وفى بغداد دعانا الشيخ ابن معمر — القائم بأعمال المفوضية العربية فى العراق إلى أكلة على الطريقة البدوية ، فاستحسنا ذلك جداً ، وآثرناها على ولمة أخرى ؛ فلما ذهبنا ألفينا السماط ممدوداً ... وأصف ما رأيت فأقول إن السجادة غطيت بملاءة بيضاء وضع عليها جفنة ضخمة فوقها صينية عظيمة لا أدرى من أين جاءوا بها ، وقد قالوا لى إن عندهم ما هو أكبر

منها بكثير ، وفوق الصينية طشت هائل ملئ أرزا مخلوطاً بالزبيب واللوز والفستق ، وعلى الأرز خروف عظيم مشوى — هذا فى الوسط ، وحول الجفنة وعلى مستدارها أطباق عديدة لا يأخذها الحصر ، فيها أنواع شتى من الطعام ... كالدجاج والخضر والعصيدة والولائق المختلفة ، وهى من دقيق وسمن ولبن ، وقد عرفوا أننا لن نستطيع مجاراتهم ، فأعدوا لنا أطباقا وملاعق وسكاكين وأشواكا ، فجعلنا نحن نأكل على طريقتنا ، أى أن نأخذ ما نشتهى فى أطباقنا . أما هم فأكلوا على الطريقة البدوية الصرف ، وهى أن يتناول الواحد قبضة من الأرز ويطوى عليها أصابعه ويضغطها حتى تصير كالكفتة ، وبعد أن يفتلها على هذا النحو يقذف بها فى فمه . وهذا يبدو هيناً سهلا ، ولكن المصيبة أن الطعام يكون كالنار فيحرق الكف ، فكيف بالفم واللسان ؟ أما اللحم فيهبر منه ما تستطيع أصابعه أن تقطعه أو تمزقه ويرمى به فى فمه ، وما يرمى فى الحقيقة إلا جمراً مضطرماً . وعلى ذكر الجمر أقول إن للعرب — أو على الأصح للبدو — طريقة عجيبة فى علاج الجروح ، وقد جربتها فأنا أتكلم عن خبرة ويقين ، ذلك أن راحتى أصابتها النار ، فجعلت أوحوح وأنفخ فيها ، ولا أدرى ما ذا أصنع لتسكين الألم على الأقل ، فصاح أحد النجديين الذين كانوا حاضرين هناك : — هذا كان فى الحجاز : « ملح ... ملح .... » فجاءوه بقليل من الملح الخشن فدبه بيده الى وقال «خذ قبضة » «فتناولت منه بيدى السليمة وأنا أضحك فى سرى وأقول لعله يظن أن الحروق يفيد فيها السحر» فصاح بى «بيدك المحروقة» ، ففهمت وأخذت قبضة بيدى المحروقة فقال « اطو عليها أصابعك » ففعلت فقال « ابق هكذا » فظللت قابضاً على الملح الخشن دقائق ثم نظر فى وجهى وقال : « استرحت الآن .. زال الألم .. » ففتحت كفى وأنا أبتسم ولا أكاد أصدق ، فما كنت أشعر بأى ألم ولا وأبت أى أثر للحرق ! فما قول الأطباء فى هذا ؟ وليكن رأيهم ما يكون فانى أنا لا أنوى أن أداوى الحروق التى تصيبنى — وعسى ألا يصيبنى شىء — إلا بالملح ...

وفى لبنان أنقذتنى فتاة لا أعرفها من هلاك محقق ، وهذه الفتاة من أعاجيب الخلق ، فان لعينها نظرة تنيم الحية — كما عرفت بالتجربة المرعبة — وأنا قوى النظرة حادها وفى وسعى أن أحدق فى قرص الشمس ، ولكنى لم أستطع أن أحدق فى وجه هذه الفتاة العجيبة . وكنت كلما وقعت عينى على عينها لا أزال أطرف ثم لا أجد بداً من تحويل عينى الى ناحية أخرى . وكنا قد لقيناها فى الصباح ونحن نصعد فى جبل فى رأسه ينبوع أردت أن أرى الموضع الذى يتفجر منه ماؤه . وكانت تحمل جرة فيها من ماء هذه العين ، وكنا نخاف أن نضل ، فسألناها عن الطريق واستدعناها فاستسقيناها وأردت أن أنقدها بضعة قروش فأبت ، وأنبأتها أنى أريد أن أرى مفجر العين فنهتنى عن ذلك ، فسألتها عن السبب فقالت وهى تهز كتفيها : « هيك » ولم تزد ، ولما ودعناها عادت فحذرتنى ، فضحكت وشكرتها وأبيت إلا أن أصعد الى حيث ينبثق الماء ، وصعدت وحدى فقد رأى إخوانى وعودة الطريق فانصرفوا عن مرافقتى ، فوجدت كهفاً على بابه عشب ونبات طويل ورأيت الماء يخرج من الكهف ، فقلت أدخل لأرى فتحيت النبات وإذا بى أرى عينين لامعتين فظيعتين ثابتتين تحدقان فى عينى ، وكانت نظرتهما من القوة بحيث لم أستطع أن أحول وجهى ، وزاد فظاعة النظرة وعمق تأثيرها أن العين لا تطرف والجفون لا تتحرك وأن البريق شديد جداً فى ظلام الغار . وكانت العينان ترتفعان عن الأرض شيئاً فشيئاً وتدنوان منى على مهل وأنا أنظر إليهما ويداى الى جانبى وقد جمدت فى مكانى وشعرت بالخدر فى أعضائى . وكنت قد أدركت أن هذه حية وأنها من النوع الوثاب الذى تتحرك عيناه ولا تطرف جفونه ، ومن هنا عمق تأثير نظرتها ، ولم يخالجنى شك فى أنى مقضى على بالهلاك . وكيف أنجو وأنا مسمر فى مكانى لا أستطيع حراكا ؟ ولو وسعنى أن أتحرك لوثبت الحية على وأنشبت فى أنيابها قبل أن أدور على عقبى . وكانت نفسى تنازعنى أن أصرخ مستنجداً ولكن شفتى كانتا مطبقتين لا تنفرجان . وإذا بالعينين المرعبتين تتراجعان فى الظلام وتهبطان الى الأرض بعد أن كانتا ترتفعان عنها وتزحفان الى ، وأحسست أن نظرتهما تفتر وأن تأثيرها فى نفسى صار أقل وأضأل ، وشعرت بأنى صرت أملك أن أحرك أعضائى بعد طول الجمود ؛ فتلفت فاذا الفتاة التى لقيناها فى الصباح تحدق فى عينى الحية بأقوى من نظرة الحية . ويكفى أنها ردتها بعينها . واختفت الحية فتشهدت وملت على الفتاة لأشكرها بقدر ما كان يسعنى أن أفعل فى مثل هذه الحالة ، فلامتنى على مخالفتها وذكرتنى أنها حذرتنى وقالت إنها أشفقت على من المصير الذى كان لا مفر منه فأدركتنى قبل أن أقضى نحبى فسكت ولم أقل شيئاً .. وماذا أقول ؟ .

ابراهيم عبد القادر المازنى